

في منظرهم وفي منظرنا

يستعرض اول المقالين التاليين نظرة المؤلفين الاوربيين للمغرب والاسلام، وتطورها خلال القرون من تهجم وعدائية الى محاولة للتفهم والتفاهم . اما المقال الثاني فهو تحليل جديد لشخصية لورنس وسره ، هو احد المرات النادرة التي يتصدى فيها كاتب عربي لهذا الموضوع الذي نشر الغربيون عنه، من وجهة نظرم ، دراسات اكثر من ان تحصى .

صُور غربيّة للعرب حسن جواديّ

يروى الشاعر الفارسي الصوفي الشهير ، مولانا جلال الدين ، في قصيدته « مشنوي معنوي » ، ان اربع قطع من نقود اعطيت الى اربعة رجال ، فارسي وعربي وتركّي واوربي . فاتفقوا كلهم على شراء عنب بها ، انما طلب كل منهم العنب بلغة قومه التي يختلف اسم العنب فيها عن اللغات الأخرى . وخلص الشاعر من القصة الى القول ان لكل انسان طريقه واسلوبه في السعي وراء الله ، ولكن الاهداف واحدة . غير أن اوربا لم تشارك الشاعر في نظرتة هذه ، ان اردنا أن نحكم عليها من كتابات بنينا وتصوراتهم للشرق في العصور الوسطى . فقد حيكت صورة الشرق (والاسلام بوجه خاص) في ذهن الرجل الاوربي من خيوط من الجهل والتعصب والتعجني ، حتى حفل التراث الاوربي بسوء فهم

الشرق وسوء تصويره ، ولم يفظن رواده الى ان البشرية واحدة ، وان للحضارات والاديان أسساً ومثلاً واحدة ، وان القلوب واحدة ، مهما تعددت او اختلفت الالسنه والالبسة والالوان والمعتقدات .

كان بزوغ فجر الاسلام الخاطف ، وقيام امبراطورية العرب الواسعة بين اسبانيا والهند ، مع حضارتهم التي ازدهرت ازدهاراً عجبياً ، مشكلة عويصة حارت اوربا في القرون الوسطى في فهمها . اذ لم تقدم الكتب المقدسة ايضاحاً لتلك المشكلة ، رغم رسوخ الاعتقاد بأن تلك الكتب تشرح كل حدث . واسقط في ايدي الاوربيين وهم يبحثون عن اجوبة لهذه الاسئلة : ما هو الاسلام ؟ هل هو هرطقة ام دين جديد ؟ هل هو من عمل الانسان ام الشيطان ؟ هل هو ظاهرة على قرب نهاية العالم ؟ كما احتارت اوربا في أي سبيل تسلك وأي عمل حاسم تقوم به لتقرير موقفها من الشرق : أحروب صليبية ، ام تبشير ، ام معايشة ، ام تبادل تجاري ؟ وقد احتاج الوصول الى قرار بشأن هذا الى معرفة صحيحة والى حكم عادل . أما المعرفة الضرورية فقد أمنتها الاتصالات بين الشرق والغرب ، التي ازدادت مع الأيام . ولكن الغرب احتاج الى قرون عديدة قبل ان انتج رجالاً يحكمون على الشرق حكماً عادلاً ونزيهاً غير خاضع لرواسب الجهل او التعصب .

وقد انزعجت اوربا من وجود الامبراطورية العربية ، واعتبرت تلك الامبراطورية عقاباً من الله وخطراً يهددها بالفناء . وكان اكثر المروجين لهذا الرأي من الاسبانيين الذين شاهدوا سقوط ملكهم وانضمام شبه جزيرتهم الى الدولة العربية الكبرى . فوضع احدهم ، بول الفاروس القرطبي ، كتاباً يهاجم فيه تساهل السكان في اوربا مع المسلمين الذين جاؤوا بلادهم . وقاده نفوره من التعايش السلمي بين عنصرى الاندلس الى اتهام النبي العربي الكريم بأنه هو المسيح الكذاب الذي تنبأ سفر « الرؤيا » بحجته عند نهاية العالم — وقد فهم الكاتب من السفر المذكور ان مجيء المسيح الكذاب سيكون في السنة ٦٦٦ ، وهي السنة التي مات الرسول فيها حسب التقويم الاسباني ! وانتشرت نظرية القرطبي انتشاراً واسعاً ، وترقب المواطنون حلول يوم القيامة مع الفتح العربي في بلادهم .

أما خارج اسبانيا وجنوبي ايطاليا ، حيث حصلت اتصالات مباشرة مع المسلمين ، فقد كان الصليبيون هم الذين كوتنوا لأوربا فكرتها الأولى عن الاسلام والعرب . ويستطيع المرء ان يتصور كم كانت تلك الفكرة عدائية وتمييزية وقائمة ، شأن اية فكرة

٧ صور غريبة للعرب

يطلقها المحاربون المغلوبون على امرهم ضد اعدائهم . فقد سُمي المسلمون بالسراسنة عموماً - وهو اسم مبهم الاصل ، وربما كان تحريفاً للفظه شرق او شرقي . ومع هذا اتهم العرب بأنهم هم الذين ابتدعوا الاسم واطلقوه على انفسهم ، اشتقاقاً من اسم زوجة ابراهيم : وذلك (حسب زعم الروايات الاوربية آنذاك) لأن العرب شعروا بضعة اصلهم لأنهم من ذرية اسماعيل ، ابن ابراهيم من زوجته هاجر الجارية ، بينما كان الاوربيون من ذرية اسحق ، ابن ابراهيم من زوجته سارة الحرة - أي ان العرب ارادوا ان يساوا انفسهم بالأوربيين فنسبوا انفسهم الى سارة التي انتسب الاوربيون اليها ! وقد صورت الآداب الاوربية (كأغنية رولاند الشهيرة) السراسنة كقوم يعبدون الأوثان ولا يؤمنون بالله ، وصورت محمد كواحد من هذه الأصنام !

وأدى ذلك الى قيام وفرة من القصص المختلفة عن الرسول العربي ، وهي اما تحريف لقصص واحاديث وروايات ونوادير اسلامية او عربية ، او مجرد روايات صنعتها الخيالات الاوربية واستساغتها العقول وتناقلتها الشعوب والاجيال دون تحريٍ عن الحقيقة . وقد نسبت الى محمد فيها اسوأ الأفعال واقساها وافظعها . من ذلك : تذكر المصادر العربية ان راهبا سوريا بجري تنبأ للرسول برسالته وهو بعد صبي . فدججت هذه القصة في اوربا مع رواية اخرى ، ونتجت عنها اسطورة شاعت وكأنها الحقيقة ، 'نسب القرآن فيها الى سرجيوس (وهو راهب نسطوري انحرف عن الايمان المسيحي فأمر البابا بقتله) ! وهذا مثل على القصص المختلفة تماماً : درّب محمد حمامة على ان تلتقط الحبوب وتأكلها من اذنه ، لذلك كانت تأتيه دائماً - فزعم للناس ان هذه الحمامة هي الروح القدس الذي يحمل اليه الوحي الالهي ! وقد استمر رواج هذه الرواية الي ما بعد عصر الانبعاث . ومثلها القصة التي ذكرها فرانس بيكون في مقاله « الجرأة » عن الخوارق النبوية ، وكانت القصة المذكورة مصدراً للثل الانكليزي السائد حتى اليوم : ان لم يأت الجبل الى محمد ذهب محمد اليه . ولم تنحصر مثل هذه الروايات والافكار في العامة الجاهلة ، بل ان اقدر المؤلفين كانوا يتأثرون بها ويننون نظرياتهم من وحيها ، مثلما كانوا يشيعونها ويقدمون الحجج عليها ، ويسهمون في تغذية اذهان العامة بوقائع مشوّهة او بأخبار ملفقة . ومع ان المؤرخ جلبرت ، من نوجنت ، يعترف في تأريخه للرسول (وهو احد اقدم السير النبوية في الغرب خارج اسبانيا) اعترافاً صحيحاً بأنه ليست لديه مصادر اولية عربية ، فانه يفشي

تحامله بقوله : « ولكن لا خوف من الكلام عن رجل تفوق شروره أيّ ظلم يمكن ان نطله به » .

مثل هذه الكتابات هي التي كوّنت صورة الشرق في الذهن الغربي في القرون الوسطى وعصر الانبعاث .

الا ان الاوربيين وجدوا انفسهم في حاجة الى مدينة جوهرها الاسلام وحملتها العرب ، بالرغم من عدم رضاهم عن تلك المدينة ولا عن جوهرها ولا حملتها . فقد تفوق الشرق على الغرب فكراً تفوقه عليه عسكرياً . وكوّن العرب مدينة متناسقة من مدنات مختلفة ، فيها الاغريقي وفيها المصري والفارسي والهندي . وغذّى علماء الدولة العربية المعرفة البشرية واسهموا فيها اسهاماً فعلياً . واذا راجع الانسان نتاج عالم كالبيروني رأى اتساع افق الفكر الاسلامي . فقد قارن البيروني بين الطبّين الهندي والاعريقي في كتاب « الصيدلة » ، وعرفنا على العلوم والتقاليد الهندية في « كتاب الهند » ، واعطانا صورة مبهجة عن امم العالم القديمة في « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، ونلخص لنا معلوماته في الهندسة والجغرافية والفلك في « التفهيم » الذي كتبه بالعربية ثم بالفارسية . لقد عملت ترجمة مصادر مثل هذه (مصادر كتبها اصحاب المعارف الواسعة في تاريخ الحضارة العربية) على تقريب الاوربيين الى تلك الحضارة : فاطلعت اوربا على كتب ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد ، وعُلمت في جامعات الغرب واديرته بحماس وتقدير . ويمكننا ان ندلل على احترام اوربا للثقافة العربية الاسلامية بما جاء في « الكوميديا الالهية » : فمع ان دانتة وضع الرسول في قاع الجحيم ، فانه وضع ابن سينا وابن رشد وصلاح الدين الايوبي في مرتبة سامية ، اذ ضمهم الى جماعة الصالحين من غير المسيحيين ، مع ابطال الاساطير الغابرة . فقد اعترفت اوربا بقيمة الفكر العربي واثر العلم العربي - ولكن كرهها للرسول العربي استمر .

واحتكّ عالم الشرق والغرب احتكاكاً مباشراً في اماكن عديدة من اسبانيا وصقلية وسوريا وبيزنطية ، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وقد بلغ تعهد اوربا للثقافة العربية ذروته في قصري الملكين الفونسو ، الملقب بالحكيم ، في اسبانيا وفرديريك الثاني

في صقلية . كان ثانيها شخصية غربية جداً : كان طاغية ، وفي الوقت نفسه كان من اذكى علماء عصره ؛ اطاع الكنيسة لبعض الوقت ، ثم عصاها . وقد قال مرة ان اكبر ثلاثة دجالين في العالم هم موسى والمسيح ومحمد - وهو رأي يذكرنا بما قاله ابو العلاء المعري . الا ان فردريك اظهر تسامحاً شديداً مع المسلمين وابدى صداقة للعرب ، وكان على صلوات ودية مع الكامل ملك مصر ، وسمى افراد حاشيته اسماء عربية . ولما ازعجته المؤامرات الداخلية فكر بالتخلي عن امبراطوريته في ايطاليا وبناء امبراطورية جديدة في الشرق ، يستطيع ان يتمتع فيها بامتيازات الطاغية الشرقي ، وخاصة طاعة الرعية المطلقة . واسكن فردريك بعد ان اخضع الاغالبية في صقلية ، ستين الف عربي في لوسيرا ، وقد احتفظ هؤلاء بحياتهم العربية الخاصة ، وكان لهم قاداتهم وشيوخهم وفقهاؤهم الخصوصيون ، وهكذا قامت في قلب اوربا ، وعلى مقربة من مقر البابا نفسه ، لأول مرة في التاريخ ، مدينة عربية بصفاتها ومعالمها وسكانها ولغتها .

وقد أغضب بعض الاوربيين نمو الثقافة العربية في اوربا وانتشارها . وكتب احدهم (الفاروس الذي سبق ذكره) ينتقد معاصريه : « يهوى المسيحيون قراءة اشعار العرب ورواياتهم ، ويدرسون فقه العرب وفلسفاتهم : لا لدحضها ، بل لتحسين لغتهم العربية وتصحيحها . ولكن اين هو الرجل العلماني الذي يقرأ الشروح اللاتينية على الكتاب المقدس ؟ يا للأسف ، ان الجيل المسيحي الجديد الموهوب يقرأ ، بأسره ، الكتب العربية . لقد نسي لغته الاصلية . ومقابل كل واحد يعرف ان يكتب رسالة الى صديقه باللغة اللاتينية ثمة الف يستطيعون ان يعبروا عن انفسهم بالعربية بفصاحة ، ويستطيعون ان ينظموا الشعر بالعربية احسن من العرب انفسهم » . ذلك لأن اوربا طمحت الى اللحاق بالحضارة العربية بعد ان ادركت تفوق الشرق الحضاري ، بغية التغلب على تلك الحضارة تغلباً روحياً . وقد ازداد هذا الطموح لما تعرف الاوربيون على نتاج الدولة الاسلامية في الفلسفة والفقه ، ولما تعرفوا على فلسفة الاغريق بواسطة ترجمة العرب ونقلهم لها . ثم ان اوربا اهتمت بالاطلاع على القرآن لمناقشة المسلمين مناقشة منطقية .

بدأ رأي اوربا في الشرق يخفف من عدائه وتحامله في اواسط القرن الثاني عشر ، اذ

نعثر فيه على محاولات لتصحيح جهل الشعب عموماً بالشرق . لكنها كانت محاولات ناقصة بالطبع ، فصور أهل الشرق موحدين يتبعون نبياً كذاباً . ولعل الخطوة الأولى لفهم الاسلام من اصوله الرئيسية هي التي قام بها بطرس ، الملقب بالوقور ، تاسع اساقفة كلوني . وكان قد فكر بدراسة القرآن وهو يرتحل في اسبانيا ، فاستقدم معه من هناك انكليزياً يدعى روبرت من كتون ، وآخر من دلاطية اسمه هرمن ، واستأجر لمساعدتهما عربياً دعي محمد . فاستخدمهما بطرس في ترجمة المصادر العربية ، فترجما بعضها . وكان اعظم اعمالهما ترجمة القرآن الى اللاتينية ، وقد اتمها روبرت في ١١٤٣ (٥٣٨ هـ) . وهي ترجمة امينة بالنسبة لذلك الوقت . كان الهدف الاول لبطرس محو جهل اوربا بالاسلام ؛ ولذلك وضع دراسة عن الدين الاسلامي اعتمد فيها على الترجمات عن المصادر العربية ، عنوانها « مختصر هرطقات المسلمين » . ثم كتب دراسة اخرى للاسلام من وجهة نظره المسيحية ، تبرز فيها لهجته المسالمة وتسامحه . يقول فيها ، مخاطباً قراءه من المسلمين : « لن اتهجم عليكم التهجم المؤلف ، بل سأخاطبكم عقلاً . ولن اناقشكم عن كره ، بل عن محبة » . ولا شك ان هذه الكتابات اسهمت كثيراً في تعريف اوربا على العرب ، ولكنها لم تنصف العرب ، فظل اوربيو القرون الوسطى عاجزين عن فهم العرب وحضارتهم وافكارهم وثقافتهم . وكان الاسلام بنوع خاص اقل ما فهموا واكثر ما اساءوا الظن به . فلم يستوعبوا فكرة نزول القرآن بالوحي ، ولم يروا في الدين الاسلامي غير حكم يقوم بالاكراه ويتساهل في الامور الجنسية !

لذلك عمّ اوربا فرح عظيم لما ذاع خبر ظهور ملك مسيحي في الشرق احتل بلاد الفرس وتوجه نحو قاعدة الخلافة العربية في بغداد لتدميرها - وكان ذلك اثر الحملة الصليبية الخامسة في ١٢٢١ ، لما كاد الغرب يتخلى عن كل امل باحتلال الشرق العربي احتلالاً عسكرياً . فاحيا الخبر الامل القديم بملك العرب الاسلامي . ولكن سرعان ما تبددت هذه الآمال ، اذ تبين ان الملك العسكري ليس الا جنكيز خان ، الوثني الذي ارتجف رهبان الاديرة من سماع اسمه ارتجاف المسلمين ! وقد حملت مصيبة الغزو المغولي العرب على الاستعانة بالملوك الاوربيين . واوفد رئيس الحشاشين ، صاحب الصيت المرعب ، رسولا عنه الى بلاطات اوربا يستغيث بالملوك ضد المغول . لكن مسعاه خاب ، اذ اجابه مطران ونشستر في انكلترا : « فلتقاتل الكلاب فيما بينها حتى يفني بعضها بعضاً ، كي تقوم

الكنيسة الكاثوليكية الجامعة على انقاضها ، ويصبح العالم عندئذ ، بالفعل ، راعياً واحداً ورعية واحدة ! وقد امل حكام الغرب بتنصير المغول ثم باستخدامهم في محاربة المسلمين . والحقيقة ان اتباع الاديان الاربعة الكبرى كلها (البوذيين والمسيحيين والمسلمين واليهود) منوا انفسهم بهذه الامنية: اراد كل منهم ان يدخل المغول في دينه ليحارب بهم اخضامه . ومع ان النجاح كان حليف الغرب بادىء الامر ، فقد اسلم المغول ثم حكموا العالم الاسلامي آخر الامر . وكان تيمورلنك ، ثاني الطغاة المغول ومروج الشرق بعد جنكيز خان ، مسلماً صحيحاً بالرغم من صلاته الحسنة باوروبا .

وبالرغم من امثال هؤلاء الغزاة ومصائبهم في الشرق ، فقد تمكن الشرق من تهديد اوربا مرة اخرى ، عندما اتسعت الامبراطورية التجارية وامتدت حدودها الى اسوار فينسا واخافت اوربا بأسرها وارقتها وقضت مضاجعها . وكان من نتائج ذلك ان سواد فكرة الشرق في ذهن الاوربيين الى حد بعيد . وزاد في سواد هذه الفكرة ما تناقلته اوربا من اخبار (صحيحة احياناً ومختلفة احياناً اخرى) وكتابات ونوادير عن العذاب الذي يلاقه المسيحيون تحت النير العثماني . وزاد فيه ، ايضاً ، ما رواه الاسرى الاوربيون الذين وقعوا في ايدي قرصان الجزائر من مغامرات ومخاطر .

حصلت تطورات جذرية في اوربا في ذلك الوقت ، بظهور حركة الاصلاح الانجيلي او البروتستاني . ومع هذا لم يعمل ذلك على وصول اوربا الى تفهم منصف للعرب . فقد قال لوثر ان الكنيسة في روما هي رأس المسيح الكذاب ، اما الاسلام فهو جسده . ومثلما انقسم مسيحيو غربي اوربا الى انجيليين وكاثوليك ، وبينما حصل هذا الانقسام ، تجلى لأوربا انقسام المسلمين (وخاصة غير العرب منهم) الى سنة وشيعة ، ولكل من الطائفتين مملكتها الكبيرة : الدولة التركية للاولى والدولة الفارسية للثانية . فابتهجت اوربا لهذا الانقسام ، وكتب الرحالة الانكليزي طوماس هربرت في وصف الاهمية السياسية لهذا الحدث : « انه لمن مصلحة اوربا ان تتعادى هاتان المملكتان الشرقتان القويتان » .

وزاد عصر الاكتشافات في عدد كتب الرحلات . الا انه لم يحصل تبديل اساسي في علاقات الشرق بالغرب . ذلك ان الرحالة لم يستوحوا مشاهداتهم واختباراتهم في كتاباتهم

عن الشرق ، وخاصة حينما تناولوا الاسلام كدين؛ بل انهم خلطوا بين ما شاهدوه وسمعوه وبين ما قرأوه مسبقاً او سمعوا عنه قبل البدء برحلاتهم . ومع ان رحالة القرنين السادس عشر والسابع عشر اضافوا الى المعلومات العامة الكثير عن الشرق ، فانهم لم يبدلوا العقلية السائدة في الذهن الاوربي ولم يقوّموها ، بل لم يجروا فيها تعديلا بسيطا .

كانت ترجمة اندريه درير للقرآن الى الفرنسية (التي نشرت في ١٦٤٧) اول ترجمة للقرآن الى لغات اوربا المعاصرة . ثم ترجم الى الانكليزية بعد سنتين ، وتدل مقدمة تلك الترجمة على المخاطرة التي قام المترجم بها في عمله . فهو يحاول تبرير القيام بالترجمة قائلا ان القارئ الاوربي لن يتعرض لأي خطر من قراءة القرآن ! ولغة المقدمة عنيفة ، يصف الكاتب القرآن فيها بأنه مجموعة اخطاء وانه نتاج مشوّه ! وقد استعمل فولتير ، في القرن التالي ، لهجة مماثلة في كتابه عن محمد (١٧٤٢) . ونحن نلاحظ في محاولة فولتير اتجاهاً جديداً : هو استخدام الاسلام مادة للطعن في المسيحية ! لقد صور فولتير محمداً بالصورة نفسها التي راجت في القرون الوسطى ، كدجال وطاغية واباحي ! انما قصد من ذلك ان يسخر من النبوات عموماً ، ومن الكهنة الكاثوليك بوجه خاص . ولأنه لم يجد كفايته في الاساطير الموروثة ، فقد ابتدع فولتير اقراءات جديدة ضد النبي العربي ، حتى ان محمداً لم يظلمه احد بمقدار ماظلمه هذا الكاتب الفرنسي المتحرر - مما يدل ان المتحررين لم يتحرروا من تعصبهم ضد الشرق ، هذا التعصب الذي تساواوا به مع المحافظين ولم يكن ادوارد غيبون خيراً من فولتير من هذه الناحية : فقد كتب باعتزاز وبهجة ان حكم الشرق « البربري » قد مضى عهده ولم يعد يهدد اوربا بعد .

اعتقد بنااة الامبراطورية ، في القرن التاسع عشر ، ان استبداد الحكومات الشرقية يقوم على الاسلام ، لما رسب في افكارهم من ان الاسلام يعتمد القوة وحدها في حكمه . من هنا كان دعاة الحرية من الكتاب الاوربيين اخصاماً للشرق وتقاليده ، حتى ان بعضهم (مثل جيمس مورير في قصته « مرزا » ، ١٨٤٣) دعا اوربا لان تحكم الشرق وتقضي على الطغيان فيه ! ولذلك استمر ، بين الحين والآخر ، ظهور كتاب جدد يعكرون صفاء ذهن الرجل العادي (بل والمثقف) ويسمون تصوراتهم عن الشرق تسمياً مفتعلاً في

اغلب الاوقات .

الا ان ذلك كله لم يمنع قيام كتاب منصفين . ومهما كانت الصورة قائمة فان لها جانباً برافاً ، وان كان صغيراً . فقد عمل نموّ الاستشراق وتوافر دراساته عن هذا الجزء من العالم على توسيع افق معرفة الغرب بالشرق ، توسيعاً نتج عنه ميل للتعرف على الشرق على صعيد أكاديمي وبروح علمية وبدون تحيز مسبق . ولعل المستشرق الهولندي هارديان رلاند اول من تفهم الشرق وانصفه في اوربا ، في كتابه : « في دين محمد » ، ١٧١٧ . وله الفضل في وضع هذه القاعدة الذهبية في علم الاستشراق : لا سبيل الى فهم الشرق الا من خلال المصادر الشرقية الاولية ذاتها . وتبعه مستشرق آخر ، هو جيكوب ارهارت ، فوضع في ١٧٣١ دراسة قصيرة ، ولكن عميقة ، عن اصول عدااء اوربا للشرق . وقد فنّد اتهامات بني قومه وتحاملهم على العرب باسلوب منطقي . وكانت كتب عربية كثيرة قد بدأت تظهر بلغات اوربا المختلفة في هذه الاثناء ، وعلى رأسها ترجمات اخرى للقرآن (ابرزها ترجمة سيل ، ١٧٣٤) ، فاطلع علماء اوربا بواسطتها على الفكر العربي الاصيل ، بدون وسيط ، اطلاقاً مباشراً اعطاهم اصحّ فكرة عن التراث العربي .

غير ان نقطة التحول في تفهّم الغرب للشرق ، وفي تبديل الصورة القائمة القديمة ، انما كانت في محاضرة شهيرة القاها كارلايل بعنوان « البطل كنيّ » في ١٨٣٧ (ونشرت بعد اربع سنوات) . حتّ كارلايل مواطنيه على ان يصرفوا من اذهانهم رواسب الصورة القديمة : « لقد حان الوقت لأن نبدل تلك الصورة » . وحاول ان يفنّد التعصب التقليدي ضد الشرق ، كما حاول ان يضع في اذهان الناس تخيلات منصفة وعادلة . وقد بدأ محاضراته باقتباس غيته : « اذا كان هذا هو الاسلام ، السنا كلنا مسلمين ؟ » ، ثم انتقل كارلايل الى تحطيم القصص المبتدعة عن الرسول ، وقال : « لانتقّر هذه الاكاذيب التي كوتّمها التعصب حول الرسول ، الا انفسنا » . ومع ان كارلايل لم يقبل بالصورة التي رسمت المصادر الاسلامية الرسول بها ، فانه انتقد معظم الافكار الاوربية حوله ، وبرز الكثير من صفاته النبيلة ، كما اظهر ان نقيض مارواه الاوربيون عن العرب ، منذ القرون الوسطى ، هو الاصوب . وقد تبدو حجج كارلايل غير صائبة احياناً للقارئ الذي لا يشاركه آراءه ونظريته في عبادة البطل ، وصحيح انه لم يبنِ تقديره للاسلام على أيّ اساس نظري سليم — ومع هذا فان محاولته كانت حجر زاوية ونقطة انطلاق . وقد ختم المحاضرة بقوله :

« كان مولد الاسلام ، بالنسبة الى الأمة العربية ، مولداً للنور من الظلمة . به اصبح للجزيرة العربية كيان وحياة . أرسل الى هذا الشعب ، الذي ترحل في صحارى جزيرته منذ بدء الخليقة دون ان يحظى باهتمام الناس ، رسولٌ بطل ومعه رسالة ليؤمنوا بها . فأصبح المجهول معلوماً ، والبسيط عظيماً . ووصلت اطراف الامبراطورية العربية غرناطة من جهة ودلبي من جهة اخرى في قرن واحد فقط . واثارت البلاد العربية بنور عظمتها ومواهبها وامجادها في عصور مظلمة فوق جزء كبير من العالم . ان الايمان خلاق . به يثمر تاريخ الأمة وترقى الانفس . البشر وقود ينتظر الرجل العظيم يأتيه من السماء كشرارة نار ، فيلتهب الاثنان معاً » .

وقد حفلت اوربا ، منذ كارلايل ، بكتابات عاجلوا الشؤون الشرقية بلا تحيز؛ ونكتفي بذكر احدهم فقط ، ادون ارنولد ، الذي عبّر عن تقديره للاسلام في كتابه « جوهرة الايمان » ، وهو تعداد لأسماء الله الحسنى التسعة والتسعين . وقد حشى الكاتب بحثه بقصص واخبار استمدتها من القرآن والاحاديث والمصادر العربية الاصلية ، ونفى عن الاسلام ان يكون بينه وبين المسيحية فرق من حيث الاهداف السلمية والمثل العليا . وشاع في اوربا ما رواه الكاتب عن الرسول شيوفاً كبيراً ، خفف من التحامل السابق ، - وان حصل ذلك متأخراً عدة قرون . وذهبت صيحته « يجب ان نفهم الاسلام وان نتفاهم معه » مثلاً .



ترجو هذه المجلة جميع الذين يكتبونها ان
يوجهوا رسائلهم اليها بالبريد المسجل